لبس العمامة

العمامة تاج العرب[١]، تزيدك بهاءً ووقارًا.

وهي ـ أيضًا ـ من هدي النبي ﷺ وقد لبس العمامة والقلنسوة، وهديه أكمل الهدى؛ فعن عمرو بن حريث رضي الله عنه قال: «كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ على المنبر، وعليه عمامة سوداء، قد أرْخَى طرفيها بين كتفيه»[٢].

قال العلامة حسين بن محمد مخلوف ـ رحمه الله ـ: «ولم ينقل إلينا ولا عرف عنه ﷺ؛ أنه جلس بين أصحابه، أو مشى في الطريق، أو خطب، أو استقبل الوفود، أو غزا وهو حاسر الرأس دون عمامة أو قلنسوة، ومن ادعى شيئًا من ذلك؛ فعليه البرهان.

---

(١) من الأمثال السائرة: العمائم تيجان العرب.

(٢) رواه مسلم (١٣٥٩).

إلى أن قال: وقد استن رسول الله ﷺ ذلك جريًا على عادة أشراف العرب، حيث كانوا لا يجلسون في المجالس، ولا يخطبون في المجامع، ولا يحضرون في المحافل إلا وعلى رؤوسهم العمائم؛ فكانت العمائم عندهم شعار الكرامة والعزة والسيادة والرياسة والمروءة والوقار، ولا زالت هذه العادة بين رؤساء العرب إلى وقتنا هذا، وسرت منهم إلى غيرهم من المسلمين في الممالك الإسلامية؛ إلا من شذ ونأى بجانبه عن تقاليد الإسلام المتوارثة والعادات العربية الصحيحة، أنفة من العرب والعروبة، واستكباراً في الأرض، وإحياء لعصبية جَنسية ممقوتة، بل لازلنا نشعر نحن المسلمين في بلادنا من أجل تأصل هذه العادة في نفوسنا بأن من يغشى مجالس العظماء والسادة عاري الرأس، قد أخل بالمروءة وتجرد من الحياء وكان حقيقًا بالعتاب بل بالعقاب.

ومن ذلك يظهر أن لبس العمامة عادة عربية قديمة، وسنة نبوية قديمة، وتقليد إسلامي متوارث، وعنوان على

المروءة والشرف، فإذا كان مطلوبًا من المسلم أن يحافظ على هذه العادة والسنة في عامة الأحوال، لا جرم يكون طلب المحافظة عليها في الصلاة آكد وألزم؛ لتأكد الأدب فيها مع الله ـ تعالى ـ أكثر من غيرها.

ولاشك أن النبي ﷺ لا يختار لنفسه من الأحوال والأفعال والصفات والهيئات إلا أشرفها وأفضلها وأعزها وأكرمها؛ فلا يعقل بعد أن وصف العمائم بأنها سيما الإسلام، وأنها الفارق بين المسلمين والمشركين، وأنها شعار الملائكة يوم بدر ويوم حنين، وبعد أن عرف عنه لبسها في سلمه وحربه وفي مجلسه وعلى منبره أن يدعها في صلاته، ولو جازت الصلاة بدونها؛ لأن الجواز مرتبة والكمال والتأدب مرتبة أعلى وأعظم وللرسول أرفع المراتب وأجلها.

والآن وقد تنوع غطاء الرأس من عمامة إلى طربوش إلى طاقية ونحوهما كما تنوع في عهده ﷺ من عمامة إلى قلنسوة إليهما معًا، ينبغي أن يعلم أن مناط الأفضلية

تغطيـة الرأس بأي غطاء متعـارف لما في كشـفهـا من سوء الأدب، وإن كانت الصلاة جائزة سواء أكانت الرأس مغطاة أم مكشوفة، فمن صلى مغـطى الرأس؛ فقد فعل الأكمل، ومن صلى عـــاري الرأس، جـــازت صـلاتـه، ولكن مع القصور من مزية الكمال، والله أعلم» اهـ[١].

وقد نقل الشيخ مـشهور بن حسن عن غـير واحد من الفقـهاء أن المشي أمـام الناس مكشوف الـرأس من خوارم المروءة، ويتحصل من مجموع كلامهم أن هذا الفعل يسقط المروءة بالشروط التالية:

أولاً ـ أن يكون الشخص غير محرم بنسك (حج أو عمرة)[٢].

ثانيًا ـ أن يكون أمام الناس[٣].

ثالثًا ـ أن يكون بلا عذر من مرض أو عمل يقتضي ذلك.

---

(١) «الأدلة الشرعية» لمخلوف ـ رحمه الله ـ (ص٣٤ وما بعدها).
(٢) «مغني المحتاج» (٤/ ٤٣١).
(٣) «تحفة الطلاب» (٢/ ٥٠٦)، و«فتح المغيث» (١/ ٢٩١).

رابعًا ـ أن يكون ممن لا يليق بمثله وهذا يختلف بالنسبة للأعمار ومكانة الشخص الاجتماعية وغير ذلك[١].

خامسًا ـ أن يكون في موضع يعد فعله خفة وسوء أدب وقلة حياء[٢].

سادسًا ـ أن يكون الفاعل رجلاً، أما المرأة؛ فيحرم عليها كشف رأسها لأنه عورة[٣].

وقال المحاميد: «والرأس كما هو معلوم ليس عورة بالنسبة للرجل، وتصح صلاته وهو مكشوف الرأس، فتغطية الرأس وعدمها قضية عرفية، وقد تغير العرف في زماننا حتى أصبح كشف الرأس ليس بمذموم ولا خارم للمروءة!

أما العلماء وكبار السن من أهل البداوي والأرياف؛ فإن غطاء الرأس لازال له مكانته في النفوس هيبة وإجلالاً،

---

(١) «معالم القربة» (ص٢١٥)، و«بغية الرائد» (ص٤١)، و«روضة الطالبين» (١١/ ٢٣٠٢).

(٢) «فتح القدير» (٧/ ٤١٤)، و«الرسائل الزينية» (ص٢٥٦).

(٣) «المروءة وخوارمها» لمشهور بن حسن (ص١٤٣، ١٤٤).

واعلم ـ يا أخي ـ أن للباس والحشمة أثرًا كبيرًا في احترام الناس لك، وخصوصًا في مكان لا تعرف فيه، ولا يفوتني أن أذكر أن اليهود ـ عليهم لعنة الله ـ يجعلون لهم شعارًا متميزًا في غطاء الرأس، والأحرى بالمسلمين أن يحرصوا على التميز وعدم التبعية في كل ما فيه إظهار لشعائر الإسلام وإعزاز المسلمين»[1].

وقال مشهور بن حسن: «هدي السلف الصالح الحرص على غطاء الرأس، ولم يثبت عن واحدٍ منهم أنه كان يسير حاسرًا»[2].

قلتُ وإن ثبت فلم يثبت عمن شهد لهم أهل العلم من السلف بالهدى وحسن السمت البتة.

---

(١) «عدالة الشاهد في القضاء الإسلامي» (ص٢٥٢).
(٢) «المروءة وخوارمها» (ص١٤٥).

قال الألباني ـ رحمه الله ـ: «ليس من الهيئة الحسنة في عرف السلف اعتياد حسر الرأس والسير كذلك في الطرقات، والدخول كذلك في أماكن العبادات، بل هذه عادة أجنبية، تسربت إلى كثير من البلاد الإسلامية حينما دخلها الكفار، وجلبوا إليها عاداتهم الفاسدة، فقلدهم المسلمون فيها، فأضاعوا بها وبأمثالها من التقاليد شخصيتهم الإسلامية»[1].

(١) «تمام المنة» (ص١٦٤).

طيب الرائحة

من حسن السمت أن يكون المرء طيب الرائحة بعيداً عن أي رائحة منفرة، ولا يقتصر الأمر على حسن السمت بل أن الطيب غذاء الروح، والروح مطية القوى، والقوى تزداد بالطيب، وهو ينفع الأعضاء الباطنة كالدماغ والقلب، ويسر النفس وهو أصدق شيء للروح وأشده ملاءمة[١].

وكان الطيب من أحب الأشياء إلى رسول الله ﷺ وهو الأسوة الحسنة في هديه ودله وسمته وفي شأنه كله، إلا ما جاء الدليل أن ذلك من خصائصه ﷺ؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حُبِّبَ إلي من الدنيا النساء والطيب، وجُعلت قرة عيني في الصلاة»[٢].

---

(١) «الآداب الشرعية» (٢/ ٣٨).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ١٢٨)، والنسائي (٧/ ٦١)، قال الألباني في «صحيح الجامع» (٣١٢٤): صحيح.

وحث ﷺ على الطيب سيما يوم الجمعة؛ فعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الغُسلُ يوم الجمعة واجب على كل محتلم وأن يَسْتَنَّ[1] وأن يمس طيباً إن وجد»[2].

وفي صحيح مسلم عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «غُسل يوم الجمعة على كل محتلم، وسواكُ، ويمسُّ من الطيبِ ما قَدَرَ عليه»[3].

قوله: «إن وجد»، قال الحافظ متعلق بالطيب أي إن وجد الطيب مسه ويحتمل تعلقه بما قبله - أيضاً - وفي رواية مسلم: «ويمس من الطيب ما يقدر عليه»، وفي رواية: «ولو من طيب المرأة».

قال عياض: «يحتمل قوله: «ما يقدر عليه»، إرادة التأكيد ليفعل ما أمكنه ويحتمل إرادة الكثرة، والأول أظهر

(١) يستن: أي يدلك أسنانه بالسواك.
(٢) رواه البخاري (٨٨٠).
(٣) رواه مسلم (٨٤٦).

ويؤيده قوله: «ولو من طيب المرأة»؛ لأنه يكره استعماله للرجل وهو ما ظهر لونه وخفي ريحه»[١].

فإباحته للرجل لأجل عدم غيره يدل على تأكيد الأمر في ذلك، ويؤخذ من اقتصاره على المس الأخذ بالتخفيف في ذلك، قال الزين بن المنير: «فيه تنبيه على الرفق، وعلى تيسير الأمر في التطيب بأن يكون أقل ما يمكن حتَّى إنه يجزئ مسه من غير تناول قدر ينقصه تحريضًا على امتثال الأمر فيه»[٢].

ونهي النبي ﷺ عن رد الطيب؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من عرض عليه ريحان، فلا يرده؛ فإنه طيب الريح خفيف المحْمَل»[٣].

---

(١) رواه مسلم (٨٤٦).
(٢) «الفتح» (٣/ ١٧).
(٣) رواه مسلم (٢٢٥٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من عُرض عليه طيبٌ، فلا يرده؛ فإنه خفيف المحمل طيب الرائحة»[(١)].

وكان رسول الله ﷺ لا يرد الطيب؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: «أنه ﷺ كان لا يرد الطيب»[(٢)].

والمسك هو أطيب الطيب وأحب الطيب إلى رسول الله ﷺ؛ فعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أطيبُ الطيبِ المِسْك»[(٣)].

ويستعمل ـ أيضًا ـ مكان الطيب أو معه البخور؛ فعن نافع قال: كان ابن عمر إذا استجمر[(٤)] استجمر بالألوة[(٥)]

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٠)، وأبو داود (٤١٧٢)، والنسائي (٨/ ١٨٩)، وقال الألباني في «المشكاة» (٣٠١٦): صحيح.
(٢) أخرجه البخاري (٢٥٨٢).
(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٣١)، وأبو داود (٣١٥٨)، والترمذي (٩٩١)، والنسائي (٤/ ٣٩)، وقال الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٣٢): صحيح.
(٤) الاستجمار: هنا استعمال الطيب والتبخر به.
(٥) الألوة: هي العود يتبخر به وتسمى الآن المجمرة أو المبخرة.

غيـر مَطَرَّاة[١] وبكافُورٍ، يَطْرَحُـهُ مع الألُوَّةِ، ثم قال: هكذا كان يستجمرُ رسول الله ﷺ»[٢].

فـعـلى المرء أن يكون أحــرص الناس على الكـمـال وأبعدهم عن النقص، فقـد كان رسول الله ﷺ يكثر من استعمال الطيب على رأسه ولحيـته حتَّى احمر شعره؛ فعن أنس بن مـالك رضي الله عنه قال: «تُوُفِّيَ رسـول الله ﷺ وليسَ في رأسِهِ ولحيتـه عشرون شعرةً بيضاءَ، قـال ربيعة: فرأيتُ شعـراً من شعـر رسول الله ﷺ فإذا هُوَ أحْـمَرُ فـسألتُ فقيل: مِنَ الطِّيبِ»[٣].

ومن كانت له عـادة في استـعمال الطـيب فلاشك أن الناس يحـبـون مَنْ هذه صـفـاتُهُ، بل حـتى الملائكة تحب الرائحة الطيبة وتنفر من ضـدها، والرائحـة الزكية تفعل في القلب فعل الكلام في السمع.

---

(١) غيرمطراة: أي غير مخلوطة بغيرها من الطيب.

(٢) رواه مسلم (٢٢٥٤).

(٣) رواه البخاري (٣٥٤٧)، ومسلم (٢٣٤٧) عدا قول ربيعة.

لو كنتُ أحملُ جمرًا حين زرتكم
لم يُنْكِرِ الكلبُ أنِي صاحبُ الدَّارِ
لكن أتيتُ وريحُ المسكِ يقدُمُنِي
والعنبرُ الندُّ مشبوبٌ على النَّارِ

وقال النابغة الذبياني مادحًا الغساسنة بطيبة رائحتهم:

رِقَاقُ النِّعَالِ(١) طيِّبٌ حُجْزَاتُهُم(٢)
يُحَيَّونَ بالرَّيْحَانِ(٣) يَوْمَ السباسبِ(٤)

---

(١) رقاق النعال: نعالهم رقيقة لا يخضنونها، والعبارة كناية عن قلّة الضرب في الأرض؛ لأنهم ملوك.

(٢) حجزاتهم: حجزة الإزار ما يُشَدُّ منه على الوسط، والعبارة كناية عن عفتهم.

(٣) الريحان: الطيب المعروف.

(٤) السباسب: يوم عيد النصارى، وهو اليوم الذي انتصر فيه الحارثُ الأعرجُ الغساني على المناذرة، وعقب عودة عسكره منتصرين خرجت ابنته حليمة وضمختهم بالطيب.

العلم النافع

ليس في الوجود أشرف من العلم النافع الذي يقربك من خالقك ويعينك على الوصول إلى رضاه، ومنفعته في استعمال حسن السمت عظيمة، بل إن الرجل ليطلب العلم فما يلبث أن يأتيه السمت الحسن يطلبه كما يطلب السيل الحدورة.

قال الحسن ـ رحمه الله ـ: «قد كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يرى ذلك في تخشعه، وهديه ولسانه، وبصره، ويَدَيْهِ»[1].

وقال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ: «إذا علمت علمًا فَلْيُرَ عليك أثَرُهُ وسَمْتُهُ، وسكينتُهُ ووقارُهُ وحِلْمُهُ، وقال: إنَّ العلماء لم يكونوا يهذرُونَ الكلامَ هكذا، ومن الناس من يتكلم كلام شَهْرٍ في ساعة واحدةٍ»[2].

---

(١) «الآداب الشرعية» (٢/ ٤٥)، و«شعب الإيمان» (٨/ ٤٢٧).
(٢) «الآداب الشرعية» (٢/ ٤٥).

ولو لم يكن من فضل العلم إلا السمت الحسن لكان ذلك سببًا في وجوب طلبه، فكيف وفيه عز الدنيا وشرف الآخرة.

ومن رام معرفة ما للعلم من فضل في السمت الحسن فلينظر إلى سمت العلماء من الصحابة فمن بعدهم.

قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ: «كان عمر أشبه الناس بهدي رسول الله ﷺ وأشبه الناس بِعُمَرَ ابْنُهُ عبد الله، وبعبد الله ابْنُهُ سالِمٌ»[1].

وقال أبو عُبَيْد ـ رحمه الله ـ: «كان أصحاب عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه يرحلون إلى عُمَرَ رضي الله عنه فينظرون إلى سَمْتِه وهَدْيِه فيتشبَّهُونَ بِه»[2].

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما: «إنَّ أشبه الناس دلاً وسمتًا وهديًا برسول الله ﷺ لابْنُ أُم عَبْدٍ[3] من حين

---

(١) «فتح الباري» (١٠/ ٥١٠).
(٢) «الصحاح» للجوهري (٤/ ١٦٩٩).
(٣) ابن ام عبد: هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

يخرج من بيته إلى أن يرجع إليه، لا ندري ما يصنَعُ في أهْلِه إذا خلا»[١].

وقال الحافظ في (الفتح) أخرج أبو عبيد في غريب الحديث: أنَّ أصحاب ابن مسعود كانوا ينظرون إلى سَمْتِه وهديه ودلِّه فيتشبّهونَ بِه»[٢].

وقال الحسن بن الربيع ـ رحمه الله ـ: «ما شبَّهْتُ أحمد بن حنبلٍ إلاَّ بابن المبارك في سَمْتِه وَهَدْيِه»[٣].

وقال ابن المبارك ـ رحمه الله ـ: «لم يكن بالمدينة أحدٌ أشبه بأهل العلم من ابن عجلانَ كُنْتُ أشبِّهُهُ بالياقُوتةِ بَيْنَ العُلَمَاءِ»[٤].

وما ذكرته هنا إنما هو قليل من كثير، ولئن كان السمت الحسن في بعض الخلفاء والملوك فهو في العلماء سجية.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩٧). (٢) «الفتح» (١٠/ ٥١٠).
(٣) «تاريخ الإسلام» للذهبي (٦٦). (٤) «الجرح والتعديل» (١/ ٢١٧).

وقد كان لكثير من العلماء من المهابة والجلال ما لا يكون مثلها لكثير من الملوك، قال ابن مهدي ـ رحمه الله ـ: «ما رأيت أحدًا أهيبَ، ولا أتم عقلاً من مالك، ولا أشد تقوى»[1].

وقال مصعب بن عبد الله في مالك:

يَدَعُ الجَوَابَ فلا يُراجَعُ هَيْبَةً ... والسائِلُونَ نَواكِسُ الأذْقانِ
عِزُّ الوَقارِ ونُورُ سُلْطانِ التُّقَى ... فَهُوَ المَهِيبُ ولَيْسَ ذا سُلْطَانِ[2]

وقال محمد بن مُسلم: «كنا نهابُ أن نُرادَّ على أحمد ابن حنبلٍ في الشيء أو نُحَاجَّهُ في شيء من الأشياء يعني لجلالتِهِ ولَهَيْبَةِ الإسلامِ الذي رُزِقَهُ».

ولعل في هذا القدر كفاية فلا تكن راغبًا عن العلم؛ فإنه لا مال أفضل منه، ولا جمال أفضل من السمت الحسن.

---

(١) «السير» (٨/ ١١٣).

(٢) «السير» (٨/ ١١٣)، و«حلية الأولياء» (٦/ ٣١٨)، و«ترتيب المدارك» (١/ ١٦٧).

التمكين في دراسة العقيدة

للتمكن في العقيدة الصحيحة التي عليها السلف الصالح من القرون الثلاثة ومن تبعهم بإحسان يثمر الهدى وحسن السمت .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥] .

مثل الله كلمة التوحيد والإيمان كمثل هذه الشجرة الطيبة الموصوفة بأن لها أصولاً وفروعًا وثمارًا، فأصول هذه الكلمة شهادة التوحيد والإيمان بأصول الدين كلها، وفروعها القيام بشرائع الإسلام الظاهرة والباطنة من حقوق الله وحقوق الخلق ، وثمارها ما يتحلى به صاحبها من كل خلق جميل وهدي حسن وسمت صالح وأوصاف عالية جليلة ، وثمار ذلك من الثواب العاجل والآجل ، فمتى

تمت هذه الشجرة؟ كملت فروعها وتمت ثمارها وعز جناها، ومتى نقصت أو ضعفت ، تبعتها هذه الأمور؛ فضعفت الفروع ، وقلت الثمار أو عدمت؛ فحقيق بكلمة هذه حالها أن يبلغ العبد من معرفتها والعمل بها غاية مقدوره لتوقف سعادته وفلاحه عليها [١] .

أما كيف يكون التمكن من علم العقيدة فلابد من دراسة ذلك على أيدي أهل العلم المعروفين فإن تعسر فلا أقل من قراءة مؤلفاتهم مثل كشف الشبهات[٢]، والأصول الثلاثة[٣]، وقد شرحهما كثير من أهل العلم، ثم مائتي سؤال وجواب في العقيدة[٤] ، ثم الواسطية بشرح ابن عثيمين. ومحمد خليل هراس والفوزان والانتقال من شرح إلى شرح مما يعين على الفهم ، ثم العقيدة الطحاوية ، ويحسن

---

(١) انظر : مجموع الفوائد لابن سعدي (٩٣-٩٤).
(٢) (٣) للشيخ محمد عبد الوهاب - رحمه الله - .
(٤) للشيخ حافظ حكمي - رحمه الله - .

مع ذلك تسجيل كل ما أشكل عليك في دفـتر خاص حتى تسأل أهل العلم فحياة العلم مذاكرته .

ويحسن قراءة كـتب شيخ الإسلام ابن تيميـة وتلميذه ابن القـيم - رحمـهمـا الله - في باب العـقيـدة وغيـره، واللبيب من كـرر القراءة في الكتـاب الواحد أكثـر من مرة وما تكرر تقرر .

الفصاحة والأدب

١ - عناية الإسلام بالأدب:

السمت الحسن كما يكون في الهيئة الحسنة يكون في الفصاحة والأدب، فلا لباس أحسن من الفصاحة ولا زي أحسن من الأدب.

وقد شجع ديننا الحنيف على الفصاحة، والأدب داخل فيها؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فجعل يتكلم بكلام، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ مِنَ البيانِ سِحراً، وإن من الشِّعْرِ حكماً»[1].

قال اللؤلؤي: «إن من البيان لسحراً»، قال: كأن المعنى: أن يبلغ من بيانه أن يمدح الإنسان فيصدق فيه حتَّى يصرف

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٠١١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢١٥).

القلوب إلى قوله، ثُمَّ يذمه فيصدق فيه حتَّى يصرف القلوب إلى قوله الآخر، فكأنه سحر السامعين بذلك»[(١)].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إنَّ من الشِّعْرِ حكمة»[(٢)].

وحث النبي ﷺ على الاستماع إلى الشعر وإنشاده؛ فعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: «رَدِفْتُ رسول الله ﷺ يومًا فقال: «هل معك من شعر أمية بن أبي الصَّلْتِ شيءٌ؟»، قلت: نعم، قال: «هيه»، فأنشدته بيتًا فقال: «هيه»، ثم أنشدته بيتًا، فقال: «هيه»، حتَّى أنشدته مائة بيت»[(٣)].

قال النووي ـ رحمه الله ـ: «ومقصود الحديث أن النبي ﷺ استحسن شعر أمية واستزاد من إنشاده لما فيه من

---

(١) سنن أبي داود (٥/ ٢٧٦).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٠١٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢١٩).

(٣) رواه مسلم (٢٢٥٥).

الإقرار بالوحدانية والبعث، ففيه جواز إنشاد الشعر الذي لا فحش فيه وسماعه، سواء شعر الجاهلية وغيرهم»[(١)].

٢ ـ ثناء النبي ﷺ على الأدب الحسن:

وأثنى النبي ﷺ على الشعر الحسن؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أصدقُ بيتٍ قالته الشعراء: ألا كلُّ شيء ما خَلا اللهَ باطلُ»[(٢)].

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبرًا في المسجد يقوم عليه قائمًا يفاخر عن رسول الله ﷺ أو ينافح، ويقول رسول الله ﷺ: «إنَّ روح القدس مع حسَّان ما نافح عن رسول الله»[(٣)].

---

(١) «شرح النووي على مسلم» (١٥/١٨).
(٢) البخاري (٦٤٨٩)، ومسلم (٢٢٠٦)، وابن ماجه (٣٧٥٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠١٣).
(٣) حسن صحيح: أخرجه الترمذي (٢٨٤٦).

وعن البراء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لحسان: «اهجهم»، أو قال: «هاجهم ـ وجبريل معك»[(١)].

وفي رواية عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ يوم قريظة لحسَّان بن ثابت: «اهج المشركين فإن جبريل معك»[(٢)].

ومن الأدب ما يكون جهادًا في سبيل الله؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جاهدوا المشركين بأموالكم، وأنفسكم، وألسنتكم»[(٣)].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «اهجُ قريشًا؛ فإنه أشد عليها من رشق بالنبل»، فأرسل إلى ابن رواحة، فقال: «اهجهم»، فهجاهم فلم يُرْضِ، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلمَّا دخل

---

(١) رواه البخاري (٦١٥٣).

(٢) رواه البخاري (٤١٢٤).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٥٠٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٩٠).

عليه قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذَنَبِه، ثُمَّ أدلع لسانه فجعل فقال: والذي بعثك بالحق لأفْرِيَنَّهم بلساني فَرْيَ الأديم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تعجل فإنَّ أبا بكرٍ أعلم قريشٍ بانسابها، وإنَّ لي فيهم نسبًا حتى يُلَخِّصَ لك نسبي»، فأتاه حسان ثم رجع فقال: يا رسول الله، قد لخَّص لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين، قالت عائشة: فسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن روح القدس لايزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله»، وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هجاهم حسان فشفى واشتفى»[1].

٣ ـ تمثل النبي ﷺ بالأدب:

ولا يلزم المرء أن يكون شاعرًا؛ فالتمثل بالشعر والأدب داخل في الفصاحة وحسن الأدب، وقد كان رسول الله ﷺ يتمثل بالشعر؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول

---

(١) رواه مسلم (٢٤٩٠).

الله ﷺ إذا استراث الخبر[١] تمثل فيه ببيت طَرَفَةَ «ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّد»[٢].

وعن البراء رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتَّى أغْمَرَ بطنَهُ ـ أو اغبَّر بطنُهُ ـ يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلَّينا
فأنزلنْ سكينة علينا
وثبت الأقدامَ إنْ لاقينا
إنَّ الألى قد بغوا علينا
فإنْ أرادوا فتنةً أبَيْنَا

ويرفع بها صوته: أبينا، أبينا[٣].

---

(١) استراث الخبر: أي استبطأه.

(٢) حسن: أخرجه أحمد (٢٤٥٢٤)، وحسنه الأرناؤوط في تعليقه على المسند (٦/ ٣١).

(٣) رواه البخاري (٤١٠٤).

٤ ـ تمثل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بالأدب:

وكذلك كان الصحابة يتمثلون بأشعار غيرهم؛ فعن أبي سنان قال: رأيت أبا هريرة يوم جمعة يقصُّ قائمًا فقال في قصصه: إنَّ أخًا لكم كان لا يقول الرفث ـ يعني عبد الله ابن رواحة ـ فقال:

وفينا رسول الله يتلو كتابه
إذا انشقَّ مكنون من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا
به موقناتٌ أنَّ ما قال واقعُ
يبيتُ يجافي جَنْبه عن فراشِهِ
إذا استثقلت بالمشركين المضاجعُ

قال الكرماني ـ رحمه الله ـ: في البيت الأوَّل إشارةٌ إلى علْمه، وفي الثالث إلى عمله، وفي الثاني إلى تكميله غيره ﷺ، فهو كامل مكمِّل»[1].

(١) «فتح الباري» (٨/ ٣٠).

وعن أبي سلمة قال: لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ متخرِّقين[١] ولا متماوتين، وكانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم فإذا أريد أحدهم على شيء من أمر دينه دارت حماليقُ عينيه كأنه مجنون»[٢].

وعن أبي خالد الوالبي قال: كنت أجلس مع أصحاب رسول الله ﷺ فلعلهم لا يذكرون إلا الشعر حتَّى يتفرقوا»[٣].

وعن أبي عيينة عن عبد الرحمن عن أبيه قال: كنتُ أجالس أصحاب رسول الله ﷺ مع أبي في المسجد، فيتناشدون الأشعار، ويذكرون حديث الجاهلية»[٤].

(١) متخرقين: أي متشققةً ثيابهم.
(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٤٩٥٧).
(٣) «مصنف ابن أبي شيبة» (١٨-٢٦).
(٤) المرجع السابق (٥٢-٢٦).

وكان ابن مسعود رضي الله عنه ربما تمثل بالبيت من الشعر مما كان في وقائع العرب»[١].

وقال عكرمة: كنتُ أسيرُ مع ابن عباس ونحن منطلقون إلى عرفات، فكنتُ أُنشدُهُ الشعر ويفتحه عليَّ»[٢].

وروى ابن عقيل في «الفنون» بإسناده، عن هشام بن سليمان المخزومي، عن أبيه قال: أذن معاوية للناس إذنًا عامًا، فلما احتفل المجلس قال: أنشدوني ثلاثة أبيات لرجل من العرب، كل بيت منهما مستقل بمعناه، فسكتوا، فلما سكتوا علم أنهم قد أعيوا، إذا طلع عبد الله بن الزبير فقيل: هذا مِقْوَلُ العرب وعلاَّمَتُها، فقال: أبا خبيب! فقال: مهيم، قال: أنشدني ثلاثة أبيات لرجل من العرب كل بيتٍ قائمٍ بمعناه، قال: بثلاث مئة ألف، قال:

---

(١) مصنف عبد الرزاق» (٢٠٥٠٤).

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٦٠٢٧).

وتساوي ؟ قال : فأنت بالخيار ، وأنت وافٍ وافٍ ، فأنشده للأفوه الأودي :

تبوتُ الناسَ قرنًا بعد قرن

فلم أرَ غير خَتَّالٍ وقالِ

قال : صدقت هيه ، قل البيت الثاني ، فقال :

وذقتُ مرارة الأشياء جمعًا

فما طعمٌ أمَرُّ من السؤالِ

قال : صدقت ، قل البيت الثالث ، فقال :

ولم أرَ في الخطوب أشد وقعًا

وأصعب من مُلاحاة الرجالِ[1]

وكان الصحابة يتمثلون بالشعر لكن لم يكن ذلك

---

(١) الآداب الشرعية (٤/ ٢٤٩) .

الغالب عليهم، فقد بوب البخاري في كتابه (الأدب المفرد) باب من كره الغالب عليه الشعر.

وذكر تحته حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يَمْتَلِئَ جَوْفُ أحدِكُمْ قَيحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أن يَمْتَلِئَ شِعْرًا»[1].

فالنهي عن أن يشغل الإنسان وقته بالشعر بحيث يكون الغالب عليه فيشغله ذلك عن قراءة القرآن وذكر الله والمأذون فيه ما سلم من ذلك.

وأما قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾، فهي منسوخة بما بعدها؛ فعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (الشعراء:٢٢٤)، إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء:٢٢٦)؛ فنسخ من ذلك

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٧٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٣٦).

واستثنى، فقال: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، إلى قوله: ﴿يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٧)»[(١)].

٥ ـ الصحابة يتمثلون بالأدب الحسن:

مع أن الصحابة كانوا يتمثلون بالشعر فليس معنى ذلك أنهم كانوا يتمثلون بالشعر حسنه وقبيحه، كلا وحاشا لهم ذلك، فما كانوا يتمثلون إلا بالشعر الحسن؛ فعن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الشِّعْرُ بمنزلة الكلام؛ حَسَنُهُ كَحَسَنِ الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام»[(٢)].

وعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: «الشِّعْرُ منه حَسَنٌ ومنه قبيحٌ، خُذْ بالحَسَنِ ودَعِ القَبِيحَ، ولقد رويتُ من شعرِ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٧١)، وأبو داود في «سننه» (٥٠١٦) بإسناد حسن وصححه الألباني في «تخريج المشكاة» (٤٨٠٥).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٦٥)، وقال الألباني في «الصحيحة» (٤٤٨): صحيح لغيره.

كعبِ بن مالك أشعارًا، منها القصيدة فيها أربعون بيتًا، ودونَ ذلك»[١].

وجميل الشعر ما كان مدحًا لله ـ سبحانه وتعالى ـ ثم نبيه من غير غلو ولا إسراف، ثم مدح الإسلام وأهله المستمسكون به وغير ذلك مما يحث على التخلق بأخلاقه؛ فعن الحسن أن الأسود بن سريع حدَّثه قال: كنت شاعرًا، فقلت: يا رسول الله! امتدحْتُ ربِّي، قال: «أما إنَّ ربك يُحبُّ الحَمْدَ»، وما استزادني على ذلك»[٢].

٦ ـ استحباب تعلم العربية:

الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا فصحاء كلهم بالفطرة بل كانوا أفصح العرب، فلم يكونوا بحاجة إلى

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٦٦)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٨٨).

(٢) حسن: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٦٨)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٣١٧٩).

تعلم العربية، لكن لما اختلط العرب بالعجم وكثرت الفتوحات وقع اللحن عند المولدين فوضعوا للعربية قواعد وأصولاً، فنحن بحاجة إلى تعلمها لتستقيم ألسنتنا وتزداد عقولنا بمشابهة صدر هذه الأمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيرًا قويًا، ويؤثر ـ أيضًا ـ في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد في العقل، والدين والخلق ـ وأيضًا ـ فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب؛ فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»[1].

وقال ـ أيضًا ـ: «وكان السلف يؤدبون أولادهم على

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٦٨).

اللحن[١]، فنحن مأمورون أمر إيجاب أو استحباب أن نحفظ القانون العربي، ونصلح الألسنة المائلة عنه فيحفظ لنا طريقة فهم الكتاب والسنة والاقتداء بالعرب في خطابها، فلو ترك الناس على لحنهم كان نقصًا وعيبًا»[٢].

وقال ابن بسام:

فلا تدع إصلاح اللسان فإنه
يخبرُ عن ما عندَه ويبينُ
ويعجبني زي الفتى وجماله
ويسقطُ من عيني ساعةَ يلحنُ
على أنَّ للإعراب حداً وربَّما
سمعتُ من الإعرابِ ما ليس يحسنُ
ولا خير في اللفظ الكريهِ سماعه
ولا في قبيح الظنِّ بالفعل أحصنُ

(١) أخرج البخاري في «الأدب المفرد» (٨٨٠)، بسندٍ صحيح صححه الألباني في «الأدب المفرد» (ص٣٠٧)، عن نافع قال: «كان ابن عمر يضربُ ولَدَهُ على اللَّحنِ».
(٢) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٥٢).

وقال شبرمة ـ رحمه الله ـ: «ما لبس الرجل لباسًا أجمل من العربية»[١].

وقال ـ أيضًا ـ: «إذا سرَّك أن تَعْظُمَ في عين من كنت في عينه صغيرًا، ويَصْغُرَ في عينك من كان في عينك عظيمًا فتعلم العربية؛ فإنها تجرِّؤك على المنطق، وتدنيك من السلطان»[٢].

وبلغ من إنكار قتادة على من أهمل لسانه وضيَّع بيانه أن قال: «لا أسأل عن عقل رجل لم يدلَّه عقله على أن يتعلم من العربية ما يصلح به لسانه»[٣].

وقال بعضهم يوصي بنيه: «يا بَنَّي، أصلحوا ألسنتكم، فإنَّ الرجل تنوبُهُ النائبة يحب أن يتجمَّل، فيستعيرُ من أخيه

---

(١) «تنبيه الألباب» (ص٤٩).
(٢) «عيون الأخبار» (٢/ ١٥٧).
(٣) «تنبيه الألباب» (ص٣٠).

دابته وثوبه، ولا يجد من يعيره لسانه».

ويشبه هذا قول المأمون لأحد أولاده وقد سمع منه لحنًا: ما على أحدكم أن يتعلَّم العربية، فيقيم بها أوَدَهُ، ويزين بها مشهده ويَفُلَّ بها حُجَجَ خصمه بمُكتات حِكَمِه، ويملك مجلس سُلطانه بظاهر بيانه، أو يسرَّ أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبيده أو أمته فلايزال الدَّهْرَ أسيرَ كلمته[٢].

إني وإن كانت أثوابي ملفقةً
ليست بخَزٍّ ولا مِنْ نسج كتانِ

فإن في المجدِ هامتي وفي لغتي
فصاحةٌ ولساني غير لحَّانِ[٢]

---

(١) «بهجة المجالس» (١/ ٦٤).
(٢) «المفرد العلم» للهاشمي (ص٣٩).

٧ ـ نفور السلف من اللحن في الكلام:

وكان السلف ينفرون من اللحن في الكلام ويستعظمون ذلك، قال عبد الله بن المبارك: «اللحن في الكلام أقبح من الجدري في الوجه»[١].

والرجل تكون له المنزلة العظيمة في القلوب والهيبة في النفوس فإذا لحن في كلامه قَلَّت مكانته وضعفت هيبته.

قال سعيد بن سليمان: «دخلتُ على الرشيد فبهرَني هيبةً، فلما لحَنَ خفَّ في عيني»[٢].

وتكلم أبو جعفر المنصور في مجلسٍ فيه أعرابيٌّ فلَحنَ فَصَدَّ الأعرابي أذنيه، فلَحَنَ مرَّة أخرى أعظم من الأولى، فقال الأعرابي: أفٍ لهذا ما هذا؟ ثم تكلم فلحن الثالثة، فقال الأعرابي: أشهد لقد وليتَ بقضاءٍ وقدر[٣].

---

(١) «بهجة المجالس» (١/ ٦٥).
(٢) «تنبيه الألباب» (ص٧٤).
(٣) «معجم الأدباء» (١/ ٨٤).

٨ ـ الأدب حلية من لا حلية له:

ومع إن حسن السمت هو المظهر الخارجي للإنسان فالفصاحة وحسن الأدب هي الحلل الذهبية التي يزداد به السمت جلالاً وجمالاً.

قال ابن شبرمة: «ما رأيتُ لباسًا على رجل أحسن من فصاحة، ولا على امرأة من شحم، وإن الرجل يتكلم فيُعرب، فكأنَّ عليه الخَزَّ الأدكن، وإن الرجل ليتكلم فيلحنَ، فكأن عليه أسْمالاً»[1].

ولعل قائلاً يقول: «إنَّ العاميةَ» ضرورةٌ لازمةٌ لمخاطبة الناس على قدر عقولهم؛ فالجواب عليه قال د/ فتحي جمعة ـ أستاذ العلوم اللغوية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة ـ حفظه الله ـ: «إنَّ المخاطبة على قدر العقول لا تعني تبذل اللغة، أو هبوط الكلام، وانحرافه عن سنن

---

(١) «روضة العقلاء» (ص ٣٦٠).

الفصحى، وإنما تعني الابتعاد عن تعقيد الفكرة، والتقعر في اللغة، أي تعمد اختيار الصعب من التركيب، والغريب الوحشي من الكلام.

أما الجنوح إلى العامية بدعوى (إفهام العوام) فإن لم يكن مداراة للعجز عن الفصحى، وقِصَر الباع في استعمالها ـ فهو ادعاء يظلم الفصحى والعوام في وقتٍ معًا! يظلم الفصحى بأنها غير مفهومة، ووالله إنَّها لمفهومة! ويظلم العوام بإنهم لا يفهمون، وتالله إنهم ليفهمون! وإلا فكيف يخشعون للقرآن، ويتأثرون ببالغ الموعظة وجميل البيان».